

وكان له وجه صارم الملامح ،
إلا أنه كان أشبه بوجوه
الفلاسفة منه بوجوه الجنود ،
ولاسيما إذا جلس وحده في غرفته
المنعزلة ينفث دخان لفافاته التي
لا تنتهي ، فيحجب عينيه
الكبيرتين الزرقاوين ، ويوسع
دائرة تأملاته ، ويجعلها تشمل
الدنيا بأسرها .. فإذا قطعها عليه
قادم وثب وثبة الهر في خفة ونشاط ،
وبرقت من عينيه بوارق الجذل
والسرور . وكان الناس يعجبون
كيف رضيت لوللى أن تزوج
هذا الكولونل ، ولم يكونوا
يعلمون أنها انتظرت الكفء
الذى يتقدم إليها فينقذها من هذا
العنوس الذى طال حتى أفرعها
وأوهى جلدتها . فلما تقدم إليها

صمت المهرجاً أو ضيعر الهنود

للكاتبة ماري كويلي
للاستاذ دريني خشبة

ماري كويلي هي مؤلفة قصة
أحزان الشيطان وغيرها من النصوص
الجميلة الرائعة التي تلتقي فيها ثلاث
ثقافات عظيمة ، الإنجليزية والفرنسية
والإيطالية ... فاري اسكتلندية
بأمها ، إيطالية بأميها ، فرنسية بتعاليمها ،
إنجليزية بحياتها ... وكانت ترجو
لو تكون موسيقية لو لم يقاب عليها
الأدب ، ولو لم ينزعها كيوييد من
ذراعى أبوالو ... وأنقصوه صمت
المهرجا هذه من أروع الأدبيات
القصيرة التي تصور هول الاستعمار في
الهند البريطانية

كانوا يدعونها « لوللى »
قبل أن تصبح حرم الكولونل
كلود أنسلى ، واسمها الحقيقى هو
لورا إيجرتون .. وهى غنية واسعة
الثراء ، تملك ضياعاً شاسعاً فى
إنجلترا ، وقصر أنيفاً فى الهند .
ولقد تركت شمس الهند سفعاً
عجيباً على جبينها وفوق خديها
كانت تستعين عليه بالدمام
والمساحيق لتجمع فيه حمرة

كلود رقص قلبها ، ورضيته على كره أو غير كره ،
ورافقته إلى الهند

وقيدته بقيد ثقيل من الذهب ، فاشترت هذا
القصر الشيد الذى يهزأ بقصور الأفيال ويسخر بما
بنى الراجوات ، ثم حشدت فيه الخدم والحشم بعد
إذ أثنت بما تؤث به بيوت الملوك ... وكان الكولونل
يلبس الفارق الكبير بينه وبين زوجته الغنية فلا
يجسر أن يؤاخذها فيما يؤاخذ فيه الرجال أزواجهم ،
فهي تصادق من تشاء ، وتدعو إلى دارها من تشاء ،
وتجلس إلى من تشاء ، وتشركه فى الحفاوة بمن
تدعو إذا شاءت ، وتهمله إن لم تشأ ... ولم لا تصنع

إنجلترا وسمة الهند ، فتكتسب به سحراً وفتنة ،
مادام الجمال قد بخل عليها بطابعه غير المألوف ...
وكانت روحها وثابة خلاصة مريحة ، وكانت هي طويلة
ممشوقة ، ذات عينين عميقتين ، تحتى فى أغوارها
أبالسة وشياطين ... وكانت تبسم ، فتفر عن ثناياها
البيض اللامعة ، فلا يصعب على محدثها أن يستشف
فى القسمات المكورة حول فمها أفانين الحب
والدهاء ...

وكان زوجها الكولونل أصغر منها سنًا ،
ولكن كانت تبدو عليه بداوات تجمله يكبرها
بسنوات وسنوات . وكان ذا جسم عظيم هرقل ،

في خلدتها أن تدعو المهرجا الوجه اللبق لا ليتناول الشاي في دارها فحسب ، بل ليقضى أياماً في قصرها الشاهق ضيفاً كريماً ... ولم ير المهرجا بأساً في أن يلبي دعوة لوالى ، وأن يضرب لذلك ميعاداً موقوتاً ، وقد أثارت تلميذته الخيلاء في نفسها ... ولما كان أهل الخيلاء لا يكتفون بأن يحسوا الكبرياء في أعماقهم ، بل يحاولون بكل وسيلة أن يشعروا الناس بما يمزق أوداجهم من عُجب وما يسكرهم من تيه ، فقد فكرت لوالى في أن تدعو رفيقة صباها ادريانا زوجة السكاكين لومارشان ، من رجال جيش الهند أيضاً ، والذي بعسكر بفرقة في إحدى المدن القريبة. ولم يكن لواحدة من صويحبات لوالى هذا الأثر العميق في نفسها الذي أحدثته فيها الفتاة العجيبة ادريانا ، ذات العينين السحريتين ، والوجه الصنوبر الصارم ، والجسم الضامر الناحل ، والشعر الذهبي الجميل ... لقد كانوا يطلقون عليها اسم قصيدة كيتس الرائعة : « الحسناء التي لا تعرف الحنان ! » ، والله ما كان أصدقهم في هذا ! فلقد كانت ادريانا صارمة في علاقاتها بكل من تعرف ، فلا تكاد تعرف أحداً حتى ترغمه على أن يحس أنها قائدة الأعلى ، وأنه ينبغي أن يتخذها مثله ... وكان صويحباتها يدركن هذا وكن يشهدن لها به عن يد وهن صاغرات . فإذا تكلمت أصغين ، وإن اقترحت شيئاً لم يعارضن ، وإن تحدثن في مسألة وأبدت رأيها فهو رأى الجميع . وكان ما يزال يتردد في سمع لوالى وفي قلبها قول ادريانا في الرجل الذي تؤثر أن يكون زوجها : « إنه هو الرجل الذي يستحق حبها وإجلالها وطاعتها ... فهو بذلك ينبغي أن يكون فذاً في أخلاقه وفي جثامه ، حتى ليكني أن ننظر إليه النظرة فتمنحه

كل هذا وهي لا تكافه قليلاً أو كثيراً مما يكاف الأزواج أزواجهم ، بل ترك له رانبه كله يتصرف فيه تصرف الراشد العاقل ، فيشتري سجاثره وينفق عن سعة بلا رقيب ، وله فوق هذا أن يملأ معدته بما تمثله به معدات الملوك ، وأن ينحط في مثل سرهم الناعمة الموضونة ، وأن يخدمه ولدان مخلدون كأمثال التؤلؤ المسكون ... ! ليس له أن يعترض أسلوب حياتها ، فهو رجل صناعته خارج المنزل ضابط في جيش الهند ، وفي داخله زوج ليس من مقاليد المنزل في يده كثير ولا قليل ، اللهم إلا هذه العلاقة الشرعية التي تفرضها السماء ، ومجبي وراء الأشياء كلها فيما بين كلود ولوالى ، وفي حين تأتي أمام الأشياء كلها بين جميع الأزواج ... فهو إذن زوج دُمّية ! وهو كهذه الدُمّية التي تتخذ في المعارض التجارية لعرض الملابس وأحدث الأزياء ، ولا يهم بعد هذا أنه دُمّية تتكلم وتاكل وتشرب وتنفث دخان اللفاف

وعرفت لوالى مهرجا الإقليم المجاور في إحدى سهراتها ، فراعها منه حسن احتفاء الناس به ، ومنافسة بعضهم بعضاً في التقرب إليه ... وحسبت أول الأمر أنه ملق الجاهير يدفعها كالتياب نحو المهرجا ، ولكنه لم يلبث أن عظم في عينها حين سمعت إليه يتحدث بلسان إنجليزي مبين ، وحين عرفت أنه تخرج في إحدى الجامعات الإنجليزية بلندن ، وأنه فلكي عظيم من أكبر علماء الفلك ، وأن له في هذا العلم رسالة قيمة يعرفها علماء بني جنسها

وكانت تدعو إلى دارها أهل الجاه وذوى المسكاة واليسار ممن تجمعهم وإياها الأندية والرائع ، فدار

يا إدرينا ما تزالان سحريتين ! وشعرك ما يزال
يلقى أضواء الذهب كما كان في الصبا ... إنك
ما تزالين طفلة كما كنت ... ولكنك أيضاً طفلة
هائلة ... سادعو لكما كلود ... كلود ! كلود !

وأقبل كلود ليؤدي وظيفة الزوج ، فقالت
لولي : « زوجي الكولونل كلود ... هلم يا كلود ...
ها هو أخوك لومارشان ... وهما صديقتي إدرينا
التي طالما حدثتك عنها » ... وهش كلود على غير
عادته وبش ، وجلس يحدث الضيفين عن سفرتهما
الطويلة ، ويحدث نفسه عن الغادة الصغيرة الفاتنة
ذات العينين السحريتين ، الجالسة أمامه ... ثم عن
هذا الحيوان زوجها ، ذى الشاربين الغليظين
المتصبين كشارب القط ، وذى الرقبة المنتفخة كأنها
رقبة العجل ... !

وجلسوا هنيهة يتحدثون ... وبدأت لولي
تقرأ سطور مأساة مكتومة في عيني صديقتها إدرينا
تلوح مناظر منها فوق المسرح الشاحب الحزين الذي
تموج ستوره فوق جبينها الشاكي ، وفي ثنايا شعرها
المسطر الجليل ... وجاء الشاي فتشقق الحديث حول
أكوابه ، وكانت نبرات الأسمى ترن في فم إدرينا ،
فما كادوا بفرغون من شايهم حتى نهضت لولي ،
ونَهَضَتْ في إثرها صديقتها ، وانطلقتا إلى غرفة
بعيدة في الجناح الآخر من القصر ليتحدثا وحدهما
وليتحدث زواجهما فيما يليق بهما ...

— إدرينا ... أأنت سعيدة ؟ أعذريني في أن
أسألك عن وجوم كانت تتعثر في أذنيه كلماتك ...
— والله يا أختاه ... لا ... ولكن ... هذا
لا يهم ...

— لا يهم ؟ وكيف ؟

قلها وعقلها وعبادتها ... » وكانت لولي لهذا السبب
تصبو إلى أن تشهد بعينيها إلى أي حد حققت الأيام
أحلام صديقتها .. فاعتزمت لذلك أن تدعوها لتقضي
أياماً في قصرها في نفس الوقت الذي يحل فيه المهراجا
ضيفاً عليها ، فهي بذلك تشهدها كيف ينزل في دارها
الملوك والأفيال إخواناً وأخذاناً ، ثم ترى ماذا كان
من هذه الشخصية الساحرة التي كانت في صباها
تجذب جميع الرفاق وتهمين عليهم وتخضعهم لآرائها .
وكان أكثر ما تصبو إليه لولي هو أن تشهد هذا
الزوج المسكري ، لتري إن كان هو الرجل الذي
يستحق أن تمنحه المرأة قلها وعقلها وعبادتها !

وبينما كانت لولي تنمق الأزهار في الغرف ،
وتأمر الخدم بتغيير بعض ما نظموا ؛ وبينما كانت
تعنى كل العناية بجناح المهراجا الذي حرصت أن
يكون بعيداً عن الجناح الذي هيأه لضييفها الآخرين ،
إذا بإدرينا وزوجها يدقان الباب ويقتحمان البهو ،
ويتسلمان حقائبهما من الخماين ...

— مرحباً مرحباً إدرينا ...
— مرحباً لولي العزيزة ، كيف أنت يا لورا .. ؟
— أوه ! لورا ... إن أحداً لم يمد يناديني
بهذا الاسم الحبيب !

— زوجي ... لومارشان ...
— مرحباً كاتين ...
— مرحباً بك يا صديقة زوجتي ... كم كنت
أتوق أنا وإدرينا للقياك !

— أنا سعيدة بكما ... سعيدة ... سعيدة
جداً ... أوه إدرينا ... عمر بأ كمله منذ افترقنا ...
ها أنت ذى ماتزالين جميلة ... عيناك ! أوه ! عيناك

تصف شعرها وتسكومتره ، وكان السحر كله ينشر
ألفازها من فمها ، فقالت لوللى :

— لله كم أنت جميلة يا إدريانا ! مهما قاسيت
فلك دائماً سحرك وروعة لفتاتك !

— حسبي هذا من دنياى الحبيشة يا لوللى !
حسبي ألا أصبح قبيحة شائبة فأفقد مع شبابي
شعورى بكرامتى ... ولكنك يا أختاه تذكرين
جمالى دائماً ، ولا تذكرين أنك كنت زهرتنا جميعاً
فى صباك ! أنا ؟ أنا جميلة ؟ !

— لا ... لم أرد أن أقول هذا ، ولكنك كما
كنت دائماً ... أنت المخلوق الفاتن الذى لا يمكن
وصفه ، ولا تزالين إلى اليوم هذا المخلوق نفسه !
لقد افتنن أنطونيو بكليوباترة ، وكليوباترة هى مخلوق
فاتن مثلك ، وفى الدنيا اليوم حسان فواتن مثلاً ،
بيد أنى لا أحسب أن فيها من هو مثل أنطونيو ..
إنك لغز يا إدريانا ... وليس أحق من الرجال فى
استكناه ألفاز الجمال !

فتبسمت إدريانا ابتسامة موجهة وقالت : « أنا ؟
أنا لغز يا لورا ؟ أبدأ ... بل أنا امرأة كسيرة القلب
مهيضة الجناح ، فقدت أحسن أمانها وأعز مثلها ،
وتحاول ما وسعها أن تكتم فى أعماقها خبيثتها
وأحزانها وسر بلواها ... فإذا باحت به لك ، فهي
واثقة أنها تنقل سرها من قلبها ... إلى ... قلبها ...
أى قلبك . ولقد شكوت إليك بئى ، وما يزال لى
رجاء إليك ... فلقد ذكرت لك أن زوجى ليس له
ما لزوجه من وقار واحترام ... إنه ... رجل ...
لا يملك رحمة إذا شرب ، بل إنه ليفقد توازنه ،
فيبدو حيواناً خبيثاً ، فهل تمد يدينى ألا تشجعيه على
كؤوسه يا لوللى ! إننى يؤمنى أن أفصح فى آلامى

— إى والله ... وله ؟ هل وجد الناس فى
هذه الدنيا ليسعدوا ؟ أبدأ ! لقد كانت أحلاماً
وسرعان ما ذوت ؛ وكانت مئى وسرعان ماسقطت
كأوراق الخريف ! هذه هى الحياة دائماً إذا ابتسمت
وتبرجت فى الربيع ، فلا بد أن تنجرد من غرورها
فى الشتاء ... وتلك هى مأساة الكل يا أختاه ...
ومع هذا فأنا لا أشكو من أوضاعها شيئاً ...
— ولكن زواجك كان ثمرة شهية من ثمار
الحب يا إدريانا !

— حقاً ... لقد كان ... ولكنى كنت أرجو
أن يكون حباً طويلاً سرمدياً كحب القديسين لله !
وأأسفاه على الأحلام اللذيذة التى كانت ثمرة خيال
الشباب العريض ، وقصص الحب الواسع ... وأنت
يا لوللى ما خطبك ؟ ألم يكن زواجك ثمرة من ثماره
المررة ؟

— أنا ؟ كلا أيتها الحبيبة ! لقد تزوجت لأنه
كان يجب أن أتزوج . لقد طال عُنوسى ، وكنت
أتمنى زوجاً رزيناً محترماً ، فلما وجدته وضعت مخالبى
فى عنقه !

— آه أيتها العزيزة ... أنت سعيدة إذن !
أما أنا ... فلم أسعد بمثل هذا الرجل !
— آسفة كثيراً يا أختاه !

— لا عليك ... لا يهم ... لا تأسفى ! أنت
تعلمين يا لوللى كم كانت أحلامى خلباً كواذب ...
لا ضير ، لقد دفنتها جميعاً ، وإنى لأقف بقبرها أحياناً
أندبها وأبكىها . ولقد عرفت الحياة الآن . ولقد
عولت على أن أحيائها كما عرفتها مجردة عن بهارجها
بعيدة من سراها الذى يخفى حقيقتها عن العالمين !
وكانت تتكلم وقد جلست أمام المرأة الكبيرة

المجاور ، وهو رجل مثقف يجيد الانجليزية ،
وبلبس ... آه يا إدريانا ... بلبس كنزاً من الجواهر
واللآلى ... أرجو أن تسعدى ببقائه كثيراً ،
وأرجو أن يسرك لقاء حاشيته العظيمة ...

انطلقت ثانية ، فلقيت لومارشان يسير بين يدي
زوجها إلى غرفته ليبدل ملابسه ، فتهتفت بكود
تقول : « كود ... أرجو أن تأتي إلى غرفتي بعد
أن ترى الكابتن غرفته ، فإن لي حديثاً معك »
وعاد كود ليأتي زوجته ، فوجدها تنتظره ثمة
لتقول له : « كود ! لشد ما يحزنني أن أخبرك أن
ضيفنا لومارشان رجل عرييد ! إنه يشرب حتى
يضيع صوابه ! » فيقول كود في ربة وخجل :
« لقد بداني أنه سكير كبير ! » ثم ينظر في الأرض ،
فتقول له لوللى : « كم أنا غيرة بك يا كود ! كم أنا
غيرة بك ! أبدأ لم أرك تضع كأساً في فك »
فتصطبغ وجنات كود بحمرة الخجل الساذج ،
فتقول له لوللى : « إذن عليك ألا تمكث من كأس
يحتسيها ! وإلا ... » وذعر كود ، وخاف أن يكون
ثمة نذير بعد (إلا) هذه ، ووصلت لوللى حديثها ،
فقالت ... « وإلا فانظر ماذا يكون من شأنه إذا
غاب عن صوابه وأحدث شحناء بينه وبين إدريانا
في حضرة المهرابا ؟ ! » ... واطمأن الكولونل ،
ووعدها ألا تصل يده إلى قطرة واحدة من الخمر .
وكافأته بأن وضعت له زهرة جميلة في عروته ،
فشكرها مستحيماً

وعجب الولدان المخلدون وهم يهثثون الخوان
لم أمرت سيدتهن بالأيضوا قوارير الخمر أو كوابها ،
وكانوا يعضون منها ما لعين رأت ولا أذن سمعت ...
(٢)

فتكون ملهاة لغيرى ... فهل أنت فاعلة ؟ ...
— أوه إدريانا ! سأكلم كود في هذا ، إن لم
يحزنك أن أفعل ... ولكنك تتركين نفسك فريسة
للموم مع ما في ذلك من الخوف عليك يا اختاه .
فهل تعديني أن تنسى أشجانك الآن ...
— أجل ... أعدك ... وسأكتم السر الهائل
الذي يمزق قلبي ... سأكتمه ...
— وأى سر هائل يا إدريانا ...
— أجل ... لقد رزقت غلاماً منذ عامين
— بالله ! وهل في ذلك ما يحزن يا اختاه ؟
— وكيف ، لقد مات منذ ثلاثة أشهر !
— مسكينة ! هذا يحزن حقاً ...

— لا ... إنه لم يحزنني أن مات طفلي ، برغم
عينيهِ اللتين ماتتآن تشعان الحب في قلبي من أغوار
ظلمات القبر ... لقد فرحت لموته ، لأنى خفت أن
ينشأ نشأة أبيه ! ...

— إدريانا ... حسبك إذن ... إنك تحرقين
بقية نفسك يا حبيبتي ... لقد قدمت إلى لترفعي
عنك بعض هذه الأحزان ، فابتسمي للحياة وأنسى
بلواك ... أشرق أيتها العزيزة وسلمى فيما مضى
لن هو أرحم بى وبك وبالناس ... ويسرنى أن
أذكر لك أن ضيفاً عزيزاً سيفشى منزلنا الليلة
وسيتناول المشاء معك ، فهل تأذنين لى فى أن أذهب
فأصاح من شأنى يا إدريانا ؟

— تفضلى ... تفضلى يا لورا ... وأرجو
ألا تستأنى على

وانطلقت لوللى ... لكنها عادت فى مثل الملح
لتقول : « أوه ! لقد نسيت أن أذكر لك أن ضيفنا
العزيز هو أحد أصحاب السمو ... هو مهرابا الإقليم

والنور والفيلة ... لقد كان يكتم حبه ويقاسى منه
مالا قدرة لجبل على حمله ، وكان يعلم أن النجوم
التي لا يراها بالعين المجردة هي أقرب من إدريانا
المتزوجة على قربها الشديد منه ... ولكن حبه
كان ينفي في قلبه ، فيفور دمه الشرق ، ولا يجد
محيصاً من أن يبرد تحت ثلوج القنوط التي كانت
تصدمه ... لأنه محال أن يجزى عن حبه بشيء
مهما كان حبه عظيماً طاهراً ...

لقد سقطت أزاهير كانت تحملها إدريانا مرة ،
فأسرع المهرجا العظيم بكل ما عليه من لآلئ وحلى
فأنحنى عليها ، وحملها للملكة ... ملكة قلبه ...
مع ما في هذا من وشك افتضاحه ... بيد أنه لم
يبال ، بل تمنى لو استطاع فغمر الأزاهير بالقبل
وهو يقدمها لسالبة لبه ...

وحال موعد الأوبة ... وانقضت الفترة
السميدة ... وتصمرت ليالى الأحلام ... وكان
غداء فاخراً غداء الوداع المؤلم الذى أعدته لوللى
لأضيافها ... ولم يكن المهرجا قد برح غرفته بعد ،
وكان بابها مفتوحاً قليلاً ، فشاهدها تنزل على الدرج
وحدها ، خفق قلبه في شدة وعنف ، وجعل يحلم
— وهو واقف بترخ وينتفض — بهذا الملاك الفاتن
والجمال المجيب ، وهذا الشعر الذهبي الذى أرسلته
إدريانا يندوّن فوق كتفها ، وهذا الفم الساحر
القرمضى الذى خلق للقبل والحب ، وهذا الجسم
الفينان الذى خلق لجنة كاملة من الهوى ، وهذا
الصدر الماجى الذى خلق للضم والعناق ... ثم
أوشك المهرجا المسكين أن يهبط وراء معبودته ،
لولا أن اغرورقت عيناه فجأة ... فارتد صمغاً
ليكفكف عبراته ، وانحط على أريكة قريبة وجعل

ولكنهم كانوا يجيئون في مدينة فاضلة من هذا
القصر النيف ، فلم يبد العجب في وجوههم وهم
يجيئون ويروحون حاملين صنوف الآكال وأكواب
المساء الزلال ... ! ولم يكونوا ينظرون إلى المهرجا
العظيم بقدر ما يدمنون النظر في هذه الملكة الإغريقية
الساحرة : إدريانا ، وهي جالسة وسط الجماعة ماتنبس
إلا قليلاً ، وقد عقصت شعرها الجميل فوق رأسها
كأنها أفرووديت !! وفي الحق ... لقد كانت إدريانا
فتنة المجلس ... ولم تشبع عيون المهرجا والحاشية
من النظر إليها بقدر ما شبت بطونهم من الآكال
الفاخرة العجيبة ... وكانت عيناها الواسعتان
السحريتان موضع فتنة القوم ولا سيما الشباب ذوى
الأماني والأطامع ...

ومضت أيام ، ولو مارشان محافظ على وقاره الذى
دبر له أحسن تدبير وأبدعه ، حتى أحست إدريانا
أن جانباً من مأساتها ينجاب عن قلبها ، وبدأت
تشعر بطرف من السعادة التي افتقدتها طويلاً فلم
تظفر بها ... وسرها أن زوجها استعاض عن نشوة
الكأس بحميا الرياضة ، وكان رياضياً بارعاً ، فكان
يستيقظ في البكور فيركب جواده ، ثم يعصى إلى
الملعب فيسارى المهرجا في لعبة الأكر ...

ولم يكن يعلم أحد بالنار التي تأججت في قلب
المهرجا ، والتي أورت لهيبها عينا إدريانا ... لقد
ظلت هذه النار المقدسة سرّاً هائلاً يؤرق المهرجا
العاشق ، ولا يستطيع أن ييوح به لأحد إلا للعينين
الحبيبتين اللتين كانتا تنظران إليه في تيه وعجب ،
وهو يقص غرائب أخباره عن أساطير الهند ،
ومشاهداته العجيبة خلال تلسكوبه في أديم السماء
وما وقع له في الأدغال من ملاحم بينه وبين الفهود

الضابط ... ولا يبالي المهرجا أن ينطلق وراءها ليكتشف السر ، ولا يبالي أيضاً أن تمتد إليه الأبصار من كل صوب ترى ما ذا يريد ... وتدخل إدريانا غرفة الطعام مع الضابط الصغير فتري زوجها ثملاً نشوان ... وقد شرب قارورة بأكلها من الخمر التي تسكر كأس منها أضخم فيل من فيلة الهند ، وأوشك أن يأتي على زجاجة أخرى ... وتجد زوجها المسكين قد ألقى ذراعيه ورأسه على الخوان ، وأخذ في شخير منكر ...

وتذهل إدريانا ... وتشير إلى الضابط فيتقدم إلى زوجها فيحتمله ، بينا زوجته تقول :

— رتشارد ! أنتام هنا ؟ هذا لا يليق ! ماذا تقول لولي وماذا يقول زوجها وماذا يقول الضيوف ؟ قم ! استيقظ ... إصعد فم في غرفتك لتستريح ... ويقول الضابط الصغير : « هلم يا كابتن ... إصح ... هذا لا ينبغي ! ... »

ويصحو الكابتن الثمل ... ولكنه بدلا من أن يصعد لينام ... يقف كالشيطان ويلكم زوجته الناعسة بقبضته القوية الجبارة لكمة ... تلقاها على الأرض ... منشياً عليها ...

وهنا يغلي الدم في رأس المهرجا ، وينقض كالصاعقة على الزوج البهيم ، فيقذف به على الأرض وينشب في عنقه أظفاره ، ويوشك أن يزهق روحه ويحمد أنفاسه ... ويجري الضابط ، ويقبل مع كلود كالود الدمية ... الذي ينقض بدوره على المهرجا فيحتمله بين ذراعيه ، وينقذ الرجل منه ، ويقول : « ماذا ؟ ألا ترى إليه ثملاً يا صاحب السمو ؟ كيف تقايل رجلاً لا يملك أن يدافع عن نفسه ؟ إنك لست جباناً ولا سفاحاً ! ... » ثم أمر الضابط أن

يتمم ويقول : « وا أسفاه ! الجنس ! الدين ! القانون ! كل أولئك فواصل تحول بين الرجل والمرأة أشد مما يحول بينهما الله ... وأما الطبيعة ... ! » وطفق ييكي كالطفل ... ولا يد له في شيء ...

وآب المهرجا إلى ملكه ... وجلس القوم إلى غدائهم مرة ، وبرزت بنت الشيطان على الخوان من جديد إذ لم يعد داع إلى تحرعها بعد إذ ذهب المهرجا. وجلس كلود بجانب لومارشان يردعه ويكبجه ، ولا يسمح له أن يضيع حلمه ويذهب وقاره بين الكأس والطاس ... ثم نهض النسوة ، وذهبن إلى الصلاة الكبرى ، ليأخذن في رقصة جميلة اقترحتها إحداهن ... ولم يمض وقت طويل حتى سمعن ضجة دخل على أثرها المهرجا المتبول بكل جواهره ولآلئه تحف به حاشيته العظيمة العجيبة ... وكان بمض خدمه يحمل عرشه المصنوع من الذهب الخالص ، فوضعه لسموه في ركن من أركان البهو ، حيث استوى عليه ، وراح يتفرس في الراقصات ، حتى إذا رأى إدريانا سمرت عيناه في طيفها الأثيري ، ولم ترمها عنها ... ثم أقبل الرجال فخيوا المهرجا وحيام ولم يكن غريباً أن يرتبك كلود ... ويسقط في يديه ونهض المهرجا من عرشه ، ولم يبالي أن يقترب من الراقصات ليلاً قلبه وعينه من ملاكة الحبيب ، وطمع أن تمسه مصادفة بطرف ثوبها ، أو بالوردة الكبيرة الحمراء التي تزين صدرها ... أو أن تاتي عليه ظلال شعرها الذهبي ، أو أن ترمقه بنظرة من عينها السحريتين ... وما كاد يفعل حتى رأى ضابطاً صغيراً يدنو من إدريانا ، ويسر إليها بكلمات فيمتنع لمن وجهها ، وتفادر المرقص من فورها مع

ينزل به القضاء ما يستأهله ... الوغد !
 — بل أنت الذى يُنزل بك القضاء ما تستأهله
 إن أبيت ! على أنه يبدو لى أنك تخشى أن تلقاه ...
 وإنى أقسم لك برى أننى لن أسمح لبريطانى أن يبدو
 أمام الهنود جباناً كما تريد أن تفعل
 وبرق الكولونل عينيه ، وراح يقتل سبألى
 شارب ، وفى صدره ثورة من الغيظ جامحة ... فقال
 الكاپتن :

— حسن ... أين هو هذا المهراجا ؟
 — هو فى الجناح الخاص به ... وحده ...
 ولا بأس إذن من أن أخبرك أنه يريد أن يعتذر لك
 فلما سمعها الكاپتن حتى ضحك وبدت نواجذه ،
 ونهض من فورهِ للقاء المهراجا ... ونظر إليه
 الكولونل نظر المغيظ المستهزئ ، وجمجم فى سرهِ
 يقول : « يا وقع ! مسكينة تلك الطفلة البائسة
 إدريانا ! مسكينة فى مثلها العليا التى تمخضت عن
 هذا الفسل ! ... تعالى يا لورا فاشهدى النموذج
 العجيب الذى كنت تشرئين إليه ، وتخذينه صماً
 لأحلامك ! هلمى لتعمدى الله على ما وهبك ! » .
 وفى الحق لقد كانت فرصة عظيمة للكولونل الذى
 كان يستكين لزوجهِ ، برغم ما كان يشعر به من
 الاستخذاء فى صميمهِ بسبب ذلك ، أن يفكر فى عجب
 لوللى وكبريائها ... وها هو ذا قد جلس يتسم لهذه
 الفكرة ، وينظر إليها تتأرجح كخلل الدخان الذى
 يصاعد من لفافته ، وينقذف من أنفه وشفتيه كما
 ينقذف البخار من محبس القطار !

واستأذن الخادم سيده المهراجا للكاپتن فأذن
 له ، وكان هذا يجلس على كرسي كبير ، وبطل من
 نافذة مكشوفة على الحديقة البانعة . فلما أحس

يستدعى زوجته لوللى ... ونظر بعد ذلك إلى المهراجا
 بكل ما فى عينيه من نبل عسكري ، وأنشأ يقول :
 « إنك ضيقى يا صاحب السمو ، فاغفر لى ما صنعت
 يدائى معك ... بيد أننى عجبت كيف تعارك ثملاً ! »
 فقال المهراجا وعينه تتقدان غضباً : « لقد قتل
 الحيوان زوجته ! » فقال كلود : « عفواً يا صاحب
 السمو ! إنك أحد رعايا الإمبراطورية ، وليس هذا
 من شأنك ! وليس لك أن تحمى إنجليزية ولا سيما
 من يد زوجها ... معذرة ... إنك لا شك تعرف
 كل ذلك تمام المعرفة ... ووجم المهراجا قليلاً ،
 لكنه انحنى انحناء خفيفة ، ثم غادر البهو وعاصفة
 من الألم ترزع قلبه وتشتعل فى عينيه ... ثم أقبلت
 لوللى فأنحنت على صديقته ورفعتها من فوق الأرض
 ولم يملك المهراجا أن ينظر خلال الباب ليرى إلى
 وجه معبودته الأصفر الممتقع ، ووردتها الدابة المنتثرة
 وحلت إدريانا إلى غرفتها وهى لا تكاد تمشي ،
 فباتت ليلة ليلاء طويلة الآلام موصولة الأحزان ،
 ثم أصبحت وبها من العلة ما يوشك أن يقضى عليها
 وانطلق كلود إلى حجرة لومارشان فأيقظه ،
 وقال له وهو عابس ثائر :

— كاپتن لومارشان ! زوجتك تشكو من
 علة شديدة ! ... لقد سلكت أمس سلوكاً شائناً
 لا يليق بمجندي بريطانى ... إحمد الله أنك لست فى
 فرقتى يا للمار ! إنجليزية يضرب زوجته ! وأمام
 مهراجا ؟ فإذا بظن الرجل بمدنيتنا ؟ لقد كاد يقتلك
 لولا أن أنقذتك من قبضتيه ! على أنك تعلم أنه
 ضيفنا وهو ذاهب اليوم ، وقد كلنى فى أمرك ،
 وهو يريد أن يراك قبل أن يرحل ! »
 — لا ... لا شأن لى به ... ولن ألقاه حتى

لومارشان : ها نحن هنا ندان فريدان ، فهل لديك الشجاعة الكافية التي تلقاني بها تحمص شريف بوده لو حطم رأسك ، وزلزل كيانتك ، لينتقم لهذه المخلوقة الضعيفة الحسنة ، التي لطمتها في موضع العزة ، ومكان الكرامة الإنسانية ، فانطرحت فوق الأرض تتلوى وتئن وتتوجع ، ليلة أمس ؟ ... مالك تنتفض هكذا ؟ ... آه ... إنها زوجتك ! وأنت إنجليزي ، وهي إنجليزية ، ولا حق لهندي مثلي في التدخل بينكما ، بـلـه حماية زوجتك منك ! وهذا هو قانونكم ! » ثم أرسل الراجا آهة عميقة هائلة ، مازالت تعصف بالكابتين الواجم حتى عرف أنها انطلاقة الحب ... ولكن الكابتين لم يُبحر جواباً مع ذاك ، بل ظل بارداً كالثلج ، جامداً كالحديد ؛ وانطلقت ألف فكرة تهجس في قلب المهرجا ، فهب من كرسيه العاجي ، وطفق ينتفض ويقول : « آواه ! آواه ! أيها الانجليزي المتعجرف الصّلف لو استطعت أن اشترى منك زوجتك الجميلة الرائعة لأصونها عن البهيمية المتأصلة فيك ! إذن نزلت لك عن نصف أملاكى وجواهرى ... ! إننى لو استطعت أن أضممها إلى ، وأخبطها في قصورى ، بدافع الرحمة والإنسانية ، للآثم الدنيا صراخاً وعويلًا ، وجعلتم تدموننا وتشتموننا ، وتقولون كدأبكم ... الهنود وحوش ... الهنود غير قابلين للتمدن ، يجب أن يظل الانجليز إلى الأبد سادة الهند ... ! وأأسفاه ! إننا شعب منلوب على أمره ، وأنتم أيها الانجليز تحتمروننا ... ولكننا نستحق ، فقد ألهتنا صغارنا عنكم ، ورسفنا في قيود المذلة التي وضعتوها في أرجلنا خلاخيل من ذهب أجيالاً بعد أجيال ، ودفعنا حكمتنا بأيدينا فألهيتمونا ببعث البدع والضلالات ،

بالانجليزي خلفه أوما برأسه إعماء هينة ، ولم يقف ليحييه ... فارتبك لومارشان ولم يدر ماذا يفعل ، ثم بحث عن كرسي ليجلس عليه فلم يجد ، فزاد ارتباكاً وتضاعفت حيرته ... وكان فوق منضدة الوسط طاس به أزهار ناضرة تملأ هواء الغرفة بعبقها العطري ، فانحنى الجندي فوقها يتشممها ، ويدفن فيها حياءه . وفي كل خطفة عين يتجه يبصره نحو المهرجا ... الذي تركه هكذا دقيقتين أو نحوها ، ثم التفت إليه فجأة مستديراً فوق كرسيه وقال :

أيها الكابتين لومارشان ! أقدم إليك اعتذارى عما فرط منى من مهرجنتك أمس إذ أنت في غير وعيك ... وذلك لأننا نحن الهنود ، لا سيما من هم في طبقتي لم نعمد شرب الخمر ، لذلك لا نعلم من عقابيلها في ألبابكم شيئاً ... وقد فطنت إلى غلطتى بعد أن عرفت ذلك ، ولهذا فقط أعتذر »

وهنا ، بلغ الكابتين ريقه ، ورُد إليه قليل من ذهنه المُشرد ؛ ثم وصل المهرجا كلامه في نفس اللهجة التي ابتدأ ، وبنفس الأسلوب : « إيه يا كابتين ؟ هل تطلب ترضية أخرى ؟ وهل بحسبك ما اعتذرت به لك ؟ » وكانما فاء الانجليزي إلى خيلائه فتذكر أن محدثه الهندي ، وإن يكن راجا عظيماً ، إن هو إلا أحد العبيد الذين لا يصح أن يُساموا الشرف الانجليزي ممثلاً في أحقر جنودهم ؛ فأخذ يقتل سُبَّالِي شاربه ، ثم قال بأنف شامخ ، وخذت مُصَمَّر : « أجل ، قبلت اعتذارك ! » وطارت العبوسة الهائلة التي كانت تُرتق فوق جبين الراجا المقطب ، ولع في عينيه برق خاطف ، وهتف بالانجليزي المتعجرف يقول : « والآن يا كابتين

وكان المهرجا يتكلم في طلاقة ويتدفق في بيان
ساحر ممتلئ بحجارة الإنسانية والمحبة . ولما انتهى
من حديثه بسط يده إلى الكايتين ايقاسمه ، ولكن
الكايتين صر خده ، وشمخ بأنفه ، وضم ذراعيه
إلى صدره في أنفة وكبرياء وقال :

— « ألا ما أجل ما تطلب أيها الهندي ! من
أنت حتى تطلب ذلك إلى ؟ »

فصرخ المهرجا صرخة مدوية ثم قال : « إنك
مسيحي ! وطالب ذكروا لي أن المسيحية هي دين
الإخلاص الصحيح وملة المحبة والسلام والنقاء ...
على أن لنا نحن الهنود ملة أخرى غير المسيحية ،
وفي ملتنا أن من عاهد على شيء وحلف عليه ،
فليس إلا أن تبر يمينه ، فلا يتحلل منها ، أو يرد
موارد الهلاك ! أفليس في ملتكم شيء من هذا ؟ »

وتبسم الكايتين ابتسامة حمقاء جاهلة ، ثم
نفض تراباً من كتفيه ، وقال : « لا ... » وما كاد
يقولها حتى امتشق المهرجا خنجرًا هائلاً من حزامه
وشهره بشدة وحنق ، ورفع يده ليفمده في صدر
الكاكر الذي أراد أن ينكر فضيلة المسيحية غطرسة
وعناداً ... ولكن ... لقد فر الجبان أرسق ما تفر
النعام من مطارديها في الصحراء ... وأغلق الباب
دونه ... فابتسم المهرجا وأغمد الخنجر ، وقال وهو
يجلس على كرسيه في صوت متهدج : « إذهب أيها
اللعين ! »

وبعد ساعتين كان المهرجا يستأذن مضيفيه
الكرمين لوللى وزوجها في الانصراف ، وقد
ودع بما يليق به من حفاوة وتبجيل ، وازدحم الجميع
حوله يُحيون ويُبَيِّون ... إلا ... إدريانا ... التي
بلغها أن المهرجا يوشك أن يرحل ، فنهضت من

وتفشيبة الشموذات والخرافات ، وقلتم إنها دين
الشعب ، ومذهب الغالبية ، فأنتم لها حماةٌ وعنها
دابة ، وبذا ضعفت الهند ، فأنتم تحكمونها
بضعفها ... ومن يدري ؟ فقد تستيقظ الهند يوماً
فتُسجِسْتَكُمْ^(١) وتقطع دابر الذين ظلموها منكم ...
ولست مع ذلك أنتقص من دولتكم ، فأمتكم أعظم
الأمم ، وأجملترا سيدة العالم .. ولكن مثلك هو من
غير شك عار عليها ، ولطخة دنس في مجدها ...
ولم ذاك ؟ إنك وأمثالك تشترون البغايا الهنديات
لتقصوا منهن أوطاراً لثيمة ، وتنسون نساءكم ،
وتطرحون زوجاتكم ... وليس بحسبك هذا ، بل
تفضحونهن بين الناس ، وبين الهنود ، كما فعلت
بامرأتك أمس ! ... ولكن مالي ولهذا كله ؟ وفيه
بمثرة الكلمات مع دنس مثلك ؟ لقد اعتذرت لك
يا لومارشان ، وانتهى ما بيننا ، فهل تعدني قبل
أن نفترق إلى الأبد ألا تهين زوجك على الصورة
التي رأيت منك أمس ! إنها جميلة أيها الرجل ، وهي
بتدليلك لها أولى ، وبمحبتك واحترامك أجدر ،
فلم تعاملها تلك المعاملة التي تجعلها تأسف أشد
الأسف على أن تزوجتك ؟ الحق أنه لا شأن لي
في كل ذلك ... ولكن ... إنس ما بيننا الآن من
فروق ... إنس أنني هندي لا شأن لي ، وأنتك
إنجليزي لك شأن أي شأن ... إنس الجنس ، إنس
الديانة ، إنس النمرة والعصية ... إنس كل أولئك
يا لومارشان ... واذكر أننا من صنع إله واحد
سرمدي أحسن كل شيء خلقه ... إذكر هذا فقط
حين أطلب منك أن تعدني وعد حر جدير بشرف
الجنود ، أنك لن تعود إلى مثلها ! ! »

هذا الكون الهادئ ، وإلى جانبه تلسكوبه الكبير الضخم ، وقد انبطح تحته يقاب عينيه في العوالم والدقائق المتناهية التي لا تنهاى ... ولا يزجه أى شئ حوله ... فقد سكن كل شئ ، واطمان كل شئ ! وليس شئ يلفت النظر إلا هذه العمامة الكبيرة التي جعلت ماستها الثمينة تعكس أضواء القمر والنجوم ، وإلا هذه العقيقة الحمراء كالدم تتألق في خاتمه ... وهكذا جلس المهرجا يفكر في أسى ما يفكر فيه البشر ... في الحب ... ولكن في أسلوب ليس كهذا الأسلوب الذى يفكر به الناس ... ثم جعل يتعمق فجأة ويقول :

— ينبغى ألا أخفى هذا الشئ العظيم عن نفسى ! حقاً إنه ذنب كبير ، ونقيصة أى نقيصة ، ولكنه مع ذاك شرف وجلال ومجد ! إنه ذنب ووزر أن أحب حسناء كان لا ينبغى أن يعلق بها قلبى هكذا وعلى هذه الصورة . لقد مزجتها بدى وروحى ، وجعلتها القديس الذى يخفق بالحياة بين جنبي ؛ بيد أنه شرف ومجد وجلال أن أموت بهذا الحب ، فأحبها إلى الأبد ، وسيقتل الموت كل ما فى ولى بها من دنس ... لقد فطن زوجها إلى ما بيننا وربما أخذها به . ولقد لمحت هذا فى جبينه المقطب واستوضحته فى عينيه المغيظتين . فإذا فعل فستحزن إدريانا ، وسأكون أنا الذى تسببت لها فى هذا الغم الذى يشبه الفضيحة ! فكيف أحتمل الحياة مع هذا ؟ وأنا إذا عشت فسيظل غرامي بها مختلطاً بدى ، ورغبتي فيها ناشبة أظفارها فى قلبي ، وهواها سارياً فى أنفاسى . وسيكون فى ذلك كله إبلامها ، وتوجمها ؛ أما إذا مت فلسوف تستعظم حبي ؛ وقد تبكي مرارة من أجلى ، فتكون دموعها ملائكة رحمة لى ، تقف

سريها ضعيفة موهونة ، وأغلقت باب غرفتها ، ثم قصدت إلى نافذة تطل على الخارج من القصر وحديقته الفيحاء ، ففتحت أحد مصاريعها ، ثم وقفت تتنظر ، حتى إذا مر المهرجا ، اغرورقت عينها فجأة ... وخفق قلبها بشدة ، حينما اتجه بكل وجهه وعينه وروحه ناحية نافذتها . فلما رآها ، ولح الدمع ينهمر على خديها الشاحبين ، زلزل قلبه وارتجفت أعصابه ، وعرف السر الرائع اللذيذ ... وانتقلت من عينها إلى فؤاده أولى رسائل حبها ... أو ... شكرها ... أو إعجابها !

ولكن ماذا يجدى المهرجا أنها أعجبت به ... أو أنها أحبته ؟ ! لقد فسر هو القضية ، وساق كل كل براهينها ! فهو هندي ، وهى إنجليزية ... وهو برهمي ، وهى مسيحية ... وهو غريب ، وهى متروجة ... وهو عبد برغم اللائى الثمينة التى تزين صدره ، وتثقل كاهله ... وهى حرة لأنها من نساء الإمبراطورية ... فأى مطعم له فيها ؟ لا شئ !!

ما كان أبدع البدر الهندي فى هذه الليلة ! وما كان أعبق الهواء البرهمي بشذى النوار الجليل الممتد فوق سطح قصر المهرجا ! وما كان أشبه هذا السطح الجليل بمحاثق بابل المعلقة ! وما كان أشبه القمر السافر الساخر بقنديل الزيت معلقاً فى العلو وسط قبة السماء ، وهو يترنح فى الأثير كالسائح الكسول الذى أعياه المسير عبر الصحراء ! لقد كان يغمض أحياناً ، ثم يصحو ، ثم يغمض كأنه الحبيب الذى يُفتر عينيه وما فيهما من نعاس ! لقد كان المهرجا العاشق يجلس وحده تحت

لم تكن إدريانا تحسب أن المهرجا سيشرّب
 السم من الحاتم العقيق الكبير ، بل كانت تحسبه
 يصلى صلاة هندية ، فلم تجرؤ أن تقترب منه ...
 وكانت قد انسرفت في ظلام الليل بعد أن
 عرفت ما به ، وعلمت طريق قصره وسط الريف
 الهندي من صديقها لوالى ... فلم تبال بشيء ، ولم
 تأبه لشيء ... بل رحلت إليه ... ربما على فيل كبير
 أبيض ... لتشكر له ... ولتثنى عليه ... ومن
 يدري ؟ ! فرمما كان في تصميمها أن تمنحه قبلة ...
 وشرب الراجا السم ... وصمت إلى الأبد !
 وتقدمت إدريانا لتشكر له ... فوجدته قد أسلم
 الروح ...

وكانت قد سمعت كل ما قاله عن الحب ، وعن
 الموت ، وعن السماء ، فجلست بجانبه تبكي ... وتذرف
 فيه دموعها ... لأنها وأسفاه ! وجدت فيه
 مثلها القديم الأعلى

— لا تذهبي يا سيدتى ... الوصية ... لقد
 أشهدنى على الوصية !
 — أية وصية يا هذا ؟
 — لقد أوصى لك بهذا القصر إذا فكر
 زوجك فى أن يهجرك . وأوصى لك بضياح
 ولآلى ...

وهجرها لومارشان ... وعاشت فى قصر
 المهرجا ... ولكن ... كالراهبة ... وكانت لوالى
 تختلف إليها ، ومعها زوجها (الدمية) كلود أنسللى

ربى فضيلة

فى الهواء لترفرف حول رمادى ، وفضلاً عن ذلك
 فالحياة الحب ، وهى بدونه موت بفيض ، وإذا حيت
 فلا بد أن أذكرها دائماً ... أذكر ماستى الكبرى ..
 زينة العزيرة البيضاء ! وسأذكرها دائماً فى ملكية
 زوجها الظالم الذى لا يستحقها ... وسيكون فى كل
 ذلك آثام وأوزار لى ... فلم لا أخلص من هذا ،
 وأفكر فيها فى مكان آخر أكثر طهارة وأشرف
 نقاء ... ؟ إن الحب لغز عميق مضل لا يستطيع
 تفسيره إلا الله ! ولكنى أفسره أنا الآخر على قدر
 استطاعتى ... على أنه إذا أحب أحد من الناس
 وأخلص فى الحب فسيحب مخلصاً إلى الأبد ...
 حتى بعد الموت ! وليس يخضع الحب لقانون أو
 عرف أو دين ! بل ليس يغيره شيء من هذا ؛ ولا
 يخفف سوره شيء من هذا .. بل .. ولن يطفى ناره
 التاجئة هنا .. إلا الحبيب ، أو .. الموت ! وبعد الموت
 ماذا عساي أجد ؟ ! أجدنى إما مع أشجاني وآلامي
 أو ... مع الله ! « قال هذا ، وكان يمسح بيده
 المرتجفة على موضع القلب من صدره ! ورفع وجهه
 وراح يقلب عينيه فى القمر الساحر والنجوم المتألقة
 ثم قال : « أوه ! أيتها الدثني التى لم تُكتشف ،
 ويأيتها العوالم التى يرجم الناس بشأنها ! ما أملأك
 بالحياة ! وما أكثر ما وراء الستار الكثيف الذى
 يحجب أسرارك عنا ! إنه لا يعرفك إلا الأرواح
 الهائمة الطليقة التى تسبح فيك بعد الموت ، والتى
 تجد فيك الحب الصحيح والسلام الدائم :

ياربى ! يا إله الجميع ! أستودع الحياة بين يديك
 وفى أعماق الوجود ، لأصعد إليك ... ولألقاك ! »
